الحفريات الاميريكية

في بيسان

بقلم حضرة الاب ا. س. مرمرجي الدومنيكي

٢

الطبقة السابعة : امنوفس الثالث وما بعده

كان امنوفس الثالث (١٤١١–١٣٧٥) مؤسس مدينة الطبقة السابعة ، لان اسمه يظهر في احد الجعلان ، وفي الختوم والاحراز الموضوعة في الاساس، تحت درجات مذبح الهيكل في تلك الطبقة . وهذا الهيكل قد استعمل حتى زمن الملك «حورمحيب» (١٣٥٠–١٣١٥) وشكله كشكل معابد المقابر ، والمعابد في البيوت الخصوصية . وكلها من عصر امنوفس الرابع ، خليفة امنوفس الثالث.

واحدى الالاهات في هيكل امنوفس الثالث كانت ، دون شك ، الالاهة « عشتريت ذات القرنين» ، لان في المعبد الداخلي نصباً يمثلها . وفي غربي هيكل امنوفس الثالث اكتشف على اهم قسم من بناية كبيرة يظهر انها « مَجْدلٌ كنعاني » او « ذو الاربعة الابراج » واساس بناية ملاصقة يمكن انها كانت محل اقامة رئيس البرج المصري . وهذا المجدل كان مكعباً ، ومدخله من الجهة الغربية . وله برج في كل من طرفي بابه.

ومما تهم ملاحظته ان في زمن تأسيس الهيكل والمجدل وغيرهما من الابنية كان التأثير الاشد وقعاً في بيسان (فضلاً عن المصري) من الطرز الآتي من نواحي بحر ايجي ، ولربما من قبرس . ويعقبه النفوذ السوري - الحثي .

قبل وفاة امنوفس الرابع (١٣٥٨) خرجت فلسطين خروجاً تاماً من حكم المصريين . والسبب المهم ان افراط الملك في اعمال التعبد جعله يهمل اشغال ملكه . وفي زمن خلفائه ، بقي الامر على ذاك الحال الى عهد سيتي الاول ، مؤسس الطبقة السادسة.

الطبقة السادسة : عصر سيتي الاول

اعاد هذا الملك حكم مصر على فلسطين (١٣١٣-١٢٩٢) في اول سنة من ملكه. وفي اثناء حملته ، بلغ بيسان حيث شيّد حصناً وهيكلاً فوق اخربة الطبقة السابعة. واسم المدينة مذكور على تمثال ابي الهول في هيكله في كورنة في مصر. وقد اقام الهيكل على محلّ هيكل امنوفس الثالث. ولا ريب انه خصّص لعبادة ميكال وعشتريت ، كما يُستدلّ من صور كثيرة وجدت هناك. وتأريخ الهيكل والحصن الملتصق به يظهر من خرطوشة وجدت هناك وعليها اسم رعمسيس الاول ، ابي الملك سيتي . وقد القيت في آساس البناء ، تحت حيطان وارضية الهيكل . وذكر اسم الملك الاب آتٍ من ان الحملة الفلسطينية تمت وقت كان سيتي مالكاً مع ابيه رعمسيس . وفضلاً عن هذا ، فقد اقام سيتي لذاته نصباً تأريخه اول سنة من ملكه . وفيه يذكر انه قد اخرج الحصن من ايدي الهاجين من شرقي الاردن. وقد وجد نصب آخر للملك سيتي ، في الطبقة الثانية ؛ وقد استعمل في زمن البيزنطيين كعتبة باب .

بالحقيقة تقسم الطبقة السادسة الى قسمين متميزين: دعي الأول طبقة سيتي المتقدمة ؛ والثاني طبقة سيتي المتأخرة ووقعوا ايضاً في بيسان على نصب كبير لرعمسيس الثاني ، تاريخه السنة التاسعة لهذا الملك.

الطبقة الخامسة : عصر رعمسيس الثاني

الظاهر ان هذه الطبقة ، كما لاح الآن ، قد اقيمت على يد رعمسيس الثاني (١٢٩٢-١٢٢٥) في السنة التاسعة من ملكه . وهي تحتوي حصناً منيعاً وهيكلين : الجنوبي منهما قائم على اخربة هيكل سيتي الاول . اما السور المزدوج الخارجي ، والباب الرسمي الذي على كل من طرفيه برج ، فقد وُجدا في القسم الغربي من الحصن . واما الهيكل الشمالي فقد كان مخصّصاً لعبادة « البعلة » لانه وجد فيه نصب لاحد المصريين فيه صورة الالاهة الكنعانية الحربية « عنتيت » ؛ وامام تاج هذه الالاهة يقرأ : « عنتيت ملكة السماء ، سيّدة جميع الالهة. »

وقد بقي هذان الهيكلان مستعملين على القليل الى زمن الفلسطينيين . ولا ريب انهما مذكوران في العهد القديم . ومما يقابل هذين الهيكلين ما نجده في بعلبك حيث كان ، على عهد الرومانيين ، هيكلان الواحد بجانب الآخر ، الاول مخصص « لبعل » المحل المدعو « المشتري الميليوبلي » والثاني لفريته . وفي هذين الهيكلين وجد كثير من الاغراض المعدة للعبادة . واكتشف على قبور مختلفة في المقبرة الشمالية يظهر في جميعها النفوذ الايجي - الاناضولي . مما جاء دليلاً على انه كما كان في عهد الملوك السابقين ، كان في ذاك العهد ، عهد رعمسيس الثاني ، عملة مستأجرون من انحاء البحر المتوسط ، يشتغلون في الحصن ، بزعامة موظفين مصريين ، الى عهد رعمسيس الثالث .

الطبقة الرابعة : العصر الرعمسيي الأخير ، الفلسطيني ، الاسرائيلي ، الاشوري ، الكلي ، البابلي الحديث ، الفارسي القديم الخ ...

في اثناء القسم الاول من حقبة الطبقة الرابعة — اي منذ موت رعمسيس الثاني ، سنة ١٢٢٥ ، الى ملك رعمسيس الثالث ، الذي كان من السلالة العشرين ، وقد ملك سنة ١١٩٨ — كان للمصريين السلطة المطلقة التامة على بيسان . الا ان بعد هذا التاريخ هجم على مصر اقوام اصلهم ايجيون واناضوليون ، وفي جملتهم الفلسطينيون وحلفاؤهم . بيد ان رعمسيس الثالث ردّ هجومهم ، وبعد بضع سنوات احتلوا سورية وفلسطين ، لكنهم كُسروا مرة ثانية بقوة الملك . ويحتمل ان يكون ذلك جرى في الجليل . ففي سنة ١١٨٧ يجب ان يتعيّن مجيء عسكر رعمسيس الثالث الى بيسان ونصبهم فيها تمثالاً للملكهم .

بعد وفاة رعمسيس الثالث ، سنة ١١٦٧ ، يظهر ان جيش العملة من البحر المتوسط ، الذين كانوا يشتغلون في بيسان ، منذ عهد امنوفس الثالث والى زمن توحتمس الثالث ، قد استولوا هم ذاتهم على الحصن وملكوه ؛ ثم اختلطوا بالفلسطينيين وغيرهم من الغزاة الذين حاربوهم بادئ الامر .

وقبور هؤلاء العملة المستأجرين تختلف عن قبور العهد الكنعاني المتوسط . فان الاولى مدوّرة ، والثانية مكعبة . ونواويس هذه القبور اسطوانية الشكل ،

ولبعضها ثقوب في اسفلها او مؤخرها. يحتمل انها كانت لتصريف سيلانات الاجسام.

نحو سنة ١٠٢٠ كسر الفلسطينيون الاسرائيليين في بيسان، غربي جبل جلبوع، وعرضوا جسد شاول في القلعة. ويظهر ذلك بنوع اجلى في الايام الاول (١٠: ٨) « وفي الغد اتى الفلسطينيون ليسلبوا القتلى، فوجدوا شاول وبنيه صرعى في جبل جلبوع. فسلبوه واخذوا رأسه وسلاحه وبعثوا يبشرون في ارض الفلسطينيين في كل جهة في بيوت اصنامهم وفي الشعب. ووضعوا سلاحه في بيت الههم وعلقوا جمجمته في بيت داجون » وجاء في سموئيل الاول (٣١: ١٠) « ووضعوا سلاحه في بيت عشتروت وعلقوا جسده على سور بيت شان. »

ومن هنا يظهر ان عبادة « البعل والبعلة » كانت بعد جارية في بيت شان، كما كانت على عهد رعمسيس الثاني: عبادة البعل في الهيكل الشمالي « لريشف »، وعبادة البعلة في هيكل « عنتيت ». وهذا يدل على ان كلا الهيكلين كانا مستعملين من زمن رعمسيس الثاني الى زمن الاسرائيليين، على اقل تقدير.

الظاهر انه نحو سنة ١٠٠٠، على زمن داود الملك، اخذ الاسرائيليون بيسان من الفلسطينيين. ويمكن ان يُنسب اليه هدم هيكل العشتروت وهيكل داجون. نقرأ في سفر الملوك الاول (٤: ١٢) « وبعنا بن احيلود في تعناك ومجدّو وكل بيت شان التي عند صرتان تحت يزرعيل من بيت شان الى آبل محولة الى ما وراء يُقعام. » وكان من واجب بعنا ان يقدم الاطعمة لسليمان الملك وبيته مدة شهر كل سنة.

وبعد قسمة ملك العبريين، عقيب وفاة سليمان، في زمن خلفه رحبعام، هجم شيشونك الاول على فلسطين، نحو سنة ٩٢٦ ودخلت عساكره مرج عزرلون ويزرعيل ونهبوا بيسان وتعناك وشونيم ومجدّو الخ.

ومن القرن الثامن الى غزو الشيتيين بقيت فلسطين تحت حكم الاشوريين. اما الشيتيون فكانوا قوماً هندياً - اوربيا، من الشمال الاقصى، دخلوا آسية الغربية بين سنة ٦٣٠ و ٦٢٥، مجتاحين اشورية وفلسطين الخ الى ان وصلوا حدود مصر حيث صدّهم الملك بسامتكس الاول. ويقول هيرودوت انهم رعبوا آسية الغربية مدة ٢٨ سنة. لكن المدة الاكيدة مجهولة.

في زمن اليونان والرومان كانت بيسان معروفة باسم سيثوبوليس اي مدينة الشيثيين . بيد ان النسبة هذه ليست باكيدة .

بعد سقوط المملكة الاشورية عبر الملك نيخو المصري في فلسطين سنة ٦٠٨ ، وانتصر على يوشيا ، ملك يهوذا ، في مرج عزرلون وواصل طريقه الى الفرات ؛ ولربما اجتاز في بيسان او ارسل قوات لاحتلالها . لكن انتصر عليه نبوكدنصر الذي كان ابوه نبوبلتر أسس المملكة البابلية الحديثة بعد خراب المملكة الاشورية . وتابع نبوكدنصر انتصاراته فوصل الى سورية وفلسطين .

على ان المملكة البابلية الحديثة لم تدم زمناً طويلاً ، اذ في سنة ٥٣٨ احتل كورش الفارسي بابل ، وأسس الدولة الفارسية القديمة التي شملت بعد ذلك داخل حدودها سورية وفلسطين .

واضمحلت هذه الدولة بظهور الاسكندر الكبير الذي دوّخ بلادها سنة ٣٣٢ . وبعد موت الاسكندر ، هجم على سورية الداخلية بطلميوس ابن لوكس من مصر ، ثم اضطر الى الانسحاب . لكنه عاد سنة ٣٠٢ واستولى على كل البلاد . وباسيلائه تنتهي الطبقة الرابعة من التل .

الطبقة الثالثة : العصر اليوناني ، اليهودي ، الروماني

من سنة ٣٠١ الى ١٩٨ ق.م. ظلت فلسطين الا مدة فترات قصيرة — تحت حكم البطالسة . ونحو القرن الثالث ق.م. شيد على التل هيكل كبير لم يُكتشف منه بالحفر الا على الاسس . وربما كان مدخله من جهة الغرب . وشكله كشكل هيكل افروديت في مصر . ولا يعرف الا القليل ، في بيسان ، من زمن اليونان . فما عدا هذا الهيكل ، وجد قبور . ويعلم ان اهم المعبودات فيها كان ديونيسيوس واستارت .

سنة ١٩٨ ، خضعت البلاد لحكم الملوك السلوقيين ، بعد ان سعى الملك انطيوخس ، ثلاث مرات سابقاً ، في ان يستولي بنوع مستمر على فلسطين فلم يفلح الا سنة ٢١٨ حيث احتل بيسان . ويخبرنا يوسيفوس المؤرخ اليهودي ، في « عادياته » ان « تريفون » مغتصب ملك سورية مدة حكم دمتريوس الثاني ،

ذهب الى بيسان في جيش ليقاتل يوناتان ، رئيس كهنة اليهود الذي كان تحت امرته ٤٠ الفاً من الرجال . وبحيلة حربية توصل الى قتله . وانتهى حكم السلوقيين في بيسان سنة ١٠٨ ، لما خان ابوقراط القائد ملكه انطيوخس وسلّم ، لقاء مقدار من الدراهم ، الموقع وما يجاوره الى يوحنا هرقان الزعيم ورئيس الكهنة الذي استولى على السامرة والبيرة.

وبقيت بيسان بيد اليهود الى حين وصول بمبيوس سنة ٦٤ حيث ابتدأ حكم الرومانيين . وبعد قليل عمرت بيسان في زمن غابينس الوالي الروماني الذي جاء البلاد سنة ٥٧ . واضحت مدينة رومانية حرة . ويقال انها اصبحت اعظم من اورشليم سكاناً وتجارة ، اذ كانت قاعدة المدن العشر التي — ما عدا بيسان — كانت كلها واقعة شرقي الاردن ، ويمكن ان يكون غابينس هو الذي بنى المسرح الكبير. وفي سنة ٦٦ ب م. ارسل نيرون واسبسيانوس لقمع ثورة اليهود في فلسطين. وقضت الفرقة الخامسة والفرقة التاسعة فصل الشتاء في بيسان . ويأسف يوسيفوس على ان كثيرين من سكان بيسان اليهود انقلبوا على اخوتهم وانحازوا الى جهة الرومان.

دام العصر الروماني الى سنة ٣٣٠ حين اسس قسطنطين الملك بزنطية قاعدة المملكة الرومانية المسيحية . لكن قبل ذلك العهد كانت المسيحية قد دخلت بيسان . وفيها استشهد كثيرون من المسيحيين في زمن اضطهاد داقيوس(٢٥٠) وديوقليسيانوس . واول مطران سُقّف على المدينة كان بتروفيلس الذي حضر المجمع الفلسطيني الملتئم سنة ٣١٨ ، وحضر المجمع النيقاوي سنة ٣٢٥.

الطبقة الثانية : العصر البزنطي (الروماني الشرقي المسيحي)

هذه الطبقة بزنطية دامت من ٣٣٠ الى الفتح العربي ٦٣٦ . وقد وجدت فيها بقايا كثيرة من عهد البزنطيين ، منها كنيسة مدوّرة واقعة في قمة التل . وسور عظيم يحيط كل المدينة . وغير ذلك من العاديات . وبواسطة المؤرخين القدماء يُعرف انه كان في بيسان كنيسة مار يوحنا ، ومعبد الرسول توما . ومعبد القديس بروكبيوس الشهيد ، وكنيسة قديمة في وسط المدينة ، وكنيسة مار

باسيليوس . وكانت بيسان الكرسي المتروبوليتي لفلسطين الثانية (اي الجليل والبيرة) وبقيت هكذا الى زمن الصليبيين حيث نقل الكرسي الى الناصرة .

الطبقة الاولى : العصر العربي ، الصليبي ، الخ

هذه الطبقة دامت من ٦٣٦ الى نحو القرن التاسع عشر . وهي الحقبة التي بنيت فيها الابنية الاخيرة على التل وقد اخذت الحجارة المستعملة فيها من الابنية القديمة . ونقلت المدافن من المقبرة العظمى الى غير اماكن .

عند الفتح الاسلامي اتخذ البزنطيون بيسان موضعاً لحشد العساكر ، قصد وقاية فلسطين الثانية من هجوم الغزاة . بيد ان العرب هاجموا البزنطيين في السهل المغمّر بالمستنقعات ، بين بيسان والاردن . لكن بيسان لم تسقط الا السنة التابعة (٦٣٦) وما استولى عليها المسلمون نهائياً الّا بعد واقعة اليرموك . وكان فاتحوها شرحبيل ، فاتح طبرية وعكا وصور ، ومؤنس جند الاردن .

ويذكر المقدسي ، في القرن العاشر ، بيسان ، مادحاً نخلها ، قادحاً في مائها . ويقول ان جامعها واقع في الساحة حيث يصلي فيه المسلمون الاتقياء .

في عهد الصليبيين ، نقل لقب المطرنية من سيتوپليس اي بيسان الى الناصرة . لكن المدينة وضواحيها اضحت « بارونية بيسان » وكان اول سادتها آدم دي بيتون . شيد معقله على موقع المدينة القديمة في تلّ الحصن .

وفي سنة ١١٨٢ استولى عليها جنود صلاح الدين ونهبوها واحرقوا ما فيها . لكنها عمرت بعد ذلك ، وكان حاكماً عليها عز الدين سمح . وزارها ياقوت الحموي سنة ١٢٢٥ ، فقال انها مدينة من مدن الاردن في الغور ، تدعى لسان الارض .

وعدة مرات اقام الملك بيبرس في بيسان معسكره ، حين كان يحارب الفرنج والمغول .

ومنذ القرن الرابع عشر سقطت بيسان في حالة الخمول ؛ ولم يعد لها ذكر في التاريخ . اما في هذا العصر فبفضل السكة الحديدية بين دمشق وحيفا ، تحسنت احوالها ، وهي على الحال التي ذكرناها في بدء المقال .